مقدّمة المترجم

هذه ترجمة من الإنجليزية لكتاب الإمام المسلم العظيم مرزا بشير الدين محمود أحمد: حياة محمد ﷺ؛ محمد الذي انتظره تاريخ التطور الإنساني ليُتوّجه الله ويختمه بالطفرة الروحية الاختيارية التي يسعى إليها الإنسان بقدميه، وتحدث له بوعي، ويولد وهو يحس مخاضه، محمد الذي يصلي عليه الله ويسلم، ولذلك نصلي نحن عليه ونسلم.

محمد ﷺ الذي كان إذا تحدث عن الله ﷻ، بدا للناظرين وكأن وجوده كله يذوب في حب عميق له تعالى، وينبض كيانه كله بنشوة إخلاص فريد لله ﷻ. اقرأوا في كتب التاريخ كيف كان ينسل ليلاً فتتبعه زوجه عائشة لتراه في البقيع يدعو لهم طاعة لأمر جاءه به جبريل، أو تجده ساجدًا مستغرقًا في تسبيحة عذبة لله، وكم ليلة ظنت أنه ربما غادر المكان إلى زوجة أخرى، فتلتمسه فتجده قريبًا في حالة ذوبان في حمد وتمجيد لله، فتقول كل مرة: أنا في واد من الفكر وأنت في واد آخر.

لقد تحكم حبه لله تعالى وإخلاصه له في جميع مجالات حياته، ولقد تلونت كل مناحي حياته بصبغة هذا الحب وذلكم الإخلاص. ولقد كان يصرف الجزء الأكبر من وقته في الليل والنهار يصلي لله، ويسبح بحمده، رغم كل الأعباء الثّقال التي كان

يحملها على عاتقه، والمسئوليات الجسام التي كانت تُطوّق عنقه. وكان يهجر فراشه، ويستأذن زوجه الطاهرة قائلاً: "دعيني يا ابنة أبي بكر أتعبد لربي"، ويكرّس كيانه لعبادة الله تعالى، ويتفكر في بكاء غالب، حتى يحين وقت الخروج إلى صلاة الصبح. وأحيانًا، كان يقف طويلاً في الصلاة من آخر الليل حتى تتورّم قدماه، وكل من شاهده على هذا الحال تأثر به كثيرًا. إنهم يهاجمونه الآن كما لم يُهاجَم إنسان بالتهم الكاذبة، وهو أطهر من خلق الله وأصدقهم، وأعظمهم استقامة وشفافية ونظافة وبساطة وتواضعًا ورقة وثباتًا ونزاهة، وانتظامًا على الحمد والتسبيح بمجد الله، وتعقلاً وعطفًا ووفاء، واحترامًا للفقير، وإحسانًا للعشرة، وإكرامًا للنساء والجار والطفل واليتيم والأرملة، وعتقًا للرقيق، وبرًا بالرّحم، وتربية روحية للصحب، وتعاونًا على المعروف، ونقاء للسان، وغوثًا للملهوف، وحفظًا للجميل، وصبرًا على المحن، وضبطًا للذات، وسهولة اللقاء، وصعوبة في قبول الشفاعة عند تطبيق القانون، ونفورًا من التحسس والتجسس والتطفل على ما لا يعنيه وفضح العيوب والقسوة، والهجوم على الأمور بلا تحقيق، وهكذا شهد تاريخه المدون.

إنه محمد ﷺ.. نبي الله الخاتم، هذا النبي الذي بارك كل من قبله من النبوة والصديقية والرسل، ودافع عن عصمة النبوة ونفى عنها كل تهمة، ولقد وجد في هذا الكتاب محاميًا قديرًا أثبت براءته وأعلن حقه أن يصدّق، وكان ذلك عقب الحرب العالمية الأولى مباشرة. هذا المحامي الذي أمضى عمره يجمع الناس إلى الحق

ويشحذ الحق من الله.

هذا المحامي ليس عربيًا بل هو هندي المولد، آذاه ما يسمع من سباب النبي والتحامل عليه تحت علم الدراسة والبحث، فقرر أن يخوض بحر الروايات، ويعيد قراءة القرآن ويتفرغ لفهمه، ففتح أسفار التواريخ، وتلقف الملفات، وخاض محيط التفسير المتلاطم ليخرج بجوهرة مكتوب عليها: أن الله ليس كما يفهمون، والرسول ليس كما يتهمون، فما كان الله لينـــزل شيئًا لا يليق، وما كان رسله دون المستوى اللائق.

تشتكي حياة الأنبياء عامة من نقص التسجيل أو الغموض.. ولكن كاتبنا يجد حياة قد فاضت عنها الروايات والتفاصيل. ويقول "من الصحيح أن هذه الغزارة في الحقائق والروايات المدونة قد أعطت النقاد الماكرين فرصتهم المنتظرة، ولكن من الصحيح أيضًا أنه حين تتم دراسة الانتقادات بعناية، ويتم الرد عليها بحسم، فإن ما تثيره فينا حياة النبي ﷺ من الإيمان والحب الغامر والتقوى، لا يماثلها فيه حياة أخرى... عندما تتم تصفية الحسابات الخاطئة للانتقادات والمفاهيم الزائفة، بردّها إلى القيم الصحيحة الثابتة، فإن حياة مثل هذه لمن المحتم أن تحبب نفسها إلينا وبصورة كاملة وإلى الأبد". ويشرح المؤلف كيف تؤثر فينا قدوة المصلي الذائب في صلاته كي تجعلنا نعيد اكتشاف الصلاة، فنحيا ما نقرؤه خلالها ونقترب.

ويرى المؤلف أن رقي محمد ﷺ وعلو مستواه الروحي كان نتيجة للالتصاق التام بالوحي الذي تلقاه، والذي قال له (كن

كذا) فصار تلك الكينونة، ومر بتلك الولادة، وكان كما أُمِر أن يكون (انظر فصل:حياة الرسول كتاب مفتوح).

لقد رصد المؤلف حياة العرب قبل الإسلام رصدًا مركزًا، يتبين منه على الفور حقيقة الأثر الذي تركه هذا الرجل العظيم على قومه، والمستوى الذي رفعهم إليه.

في فصل: حالة جزيرة العرب عند مولد رسول الله، تلخيص للحالة الخلقية والعقلية والاقتصادية للعرب، وكذلك العلاقات بين الإنسان والإنسان التي كانت متخلفة في جوانب عميقة، متقدمة في جوانب أخرى محدودة.. لقد كانوا في ضلال مبين.

ويلقي الضوء على زواجه الذي يكشف عن بؤرة مضيئة وسط الظلام، هي بيته الطاهر، أعدت لمهمة عتيدة كي تزيد من مساحة النور تلك لتتسع حتى تبلغ أعماق المكان وأعماق الإنسان وكل الألوان، عندما تلقّى تاج النبوة فتوّجت بذلك أمانته وصدقه، وعزوفه عن الوثنية، وميله الجارف لإغاثة الملهوف، وصلة الرحم، وعتقه للعبيد، وحسن عشرته، حتى ليؤثر زيد بن حارثة أن يكون عبدًا ملازمًا له، على أن يكون حُرًّا وسط بيت أبيه. ما الذي رأته السيدة خديجة حتى وهبته النفس والمال؟ ما الذي رآه زيد حتى فضله على الأب والأم.. ما الذي رآه أهل مكة حتى أجمعوا إجماعًا لم يحدث في تاريخ العرب على إطلاق صفة الصادق والأمين عليه؟ لقد رأوا فيه ما رآه الله وأخبره به: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وتوّج ذلك بالوحي. لقد أنزل القرآن جائزة على رجلٍ عطوفٍ، يُكسِب المعدم، ويقرى الضيف، ويحمل المتعب الكليل، ويعين عند

المحنة، فقد كانت كلمات الله تتنـــزل دائمًا على هكذا رجال، وهذا هو أصل الإسلام الذي ظلموه، والنبي الذي هضموه حقه، ولم يسألوا: ما الذي رآه أبو بكر فيه حتى اكتفى بادعائه النبوة كدليل على صدقه، لأن مثله لا يكذب؟

هذه هي الرؤية الأولى والانطباع الأول للزوج العاقلة، والصديق المتّزن، والخادم الملازم، والجيران والمحيطين الذين لم تتولد فيهم مشاعر الخصام بعد.. إنه الصادق والرؤوف معًا. ولكم أيها القراء الحق أن تسألوا عما رأى النساء والعبيد الأوّلون، والعقلاء السابقون، في دعوة الله وكلامه.. لقد رأوا كرامة وحرية ورحمة وفهمًا.

وفي صفحة رائعة يكتبها مسلم غير عربي عام ١٩٢٠م، يوضح فيها كُنه الرحمة الجديدة بعنوان "رسالة الإسلام"، نجد ضوءًا كاشفًا لرؤية إسلامية عذبة مستنيرة، تؤسس للإنسان ثم لشبابنا طريقًا للنهضة الحقة، بعيدًا عن السطحية.

وما بين الاضطهاد الذي يشيب له الولدان، والمُنْصَبّ انصبابًا على الضعفاء المسلمين الجدد، وحلاوة الإيمان الغلاّبة، وبين الهجرة إلى واحدة من البلاد المسيحية العظيمة وهي الحبشة؛ حيث لم يكن يُظلم الناس بسبب المعتقد، وما بين المقاطعة التامة من أهل مكة للنبي ﷺ وكل من يقف بجانبه بأي صورة، يرصد المؤلف محنة النبي وبحثه عن مخرج، حين أصبح يومًا لا يجد أحدًا منهم يكلمه، ولا يرد عليه أي رد من شدة الكيد، وإزاء ذلك يفكر في الذهاب للطائف – قريبًا من مكة – ليدعوهم.

ويرصد المؤلف حادثة مهمة، حين عرض ملائكة الله أن يدمّروا مضطهديه، وهو عائد مطرود من الطائف، جريح نازف، وهنالك قرر رفض العرض وانتظار السنن وديناميكيتها وتفاعلات الأحداث، حتى يهدى الله من أصلابهم من يوحد الله.

إنها حياة غنية قوية، تقاوم الموت وتطلب الحياة.. وتلتمس فرص التنوع الكوني لتثمر.

في المدينة كان هناك تربة صالحة للغرس، كما كان في الحبشة تربة صالحة للّجوء، كما كان في بلاد بعيدة تربة صالحة تنتظر دعوة التوحيد، وكان في الإنسان فرصة للاستئناس.

طرَق النبي الاحتمالات العديدة، وفاز منها احتمال يثرب التي أسلم بعض أهلها.. استمعوا من النبي وسمعوا من أعداء النبي.. كان كلام النبي حجة ناضجة للفهم، وكان أعداؤه يلقون بمطاعن ناضجة للتشويش، تم طبخها على مدى ١١ عامًا. واختار عرب المدينة النبي على عدوّه، وقرروا أن يمنعوه كما يمنعون أنفسهم وأعراضهم. وهاجر النبي ﷺ إليهم يقول: أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام. فيا ليت قومنا يفقهون!

وفي عنوان دال في فصل: الأخطار تحوم في المدينة؛ يبرئ المحامي الهندي موكله من تهمة إشعال شرارة أحداث الحرب مع أهل مكة بأدلة منصفة، تتبع تفاصيل الأحداث دون تجاهل، فقد كان النبي ﷺ يضع خططًا للإخاء، ويؤسس نظامًا للقضاء، كي يشتكي المظلوم ولا يتحول إلى جلاد، ويكتب عهودًا بين طوائف المدينة

للسلام والتعاون البنّاء والحرية الدينية، ويؤسس حقوق الناس، ويقيم الليل ويملي الكتاب، ويصلح بين المتخاصمين، ويحث على إماطة الأذى عن الطريق، ويدعو بالحكمة لدينه، بينما كان أهل مكة يخططون لإبادته، ويجوسون خلال القبائل المحيطة بالمدينة لتأليبهم ضد النبي وصحبه، ويراسلون منافقي المدينة بالرغب والرهب ليطردوا النبي ومن معه أو يقاتلوهم، "وإلا غزوهم فقتلوا الرجال وسبوا النساء"، وهكذا كانت رسالتهم، وبدأت كراهية القبائل العربية تنمو ومسعر الحرب يشتعل.

لم يكن النبي ﷺ؛ المسؤول الأمين، بمستسلم للغفلة.. فقام بالأقل الواجب رغم حقه في حرب وقائية، وهذا الأقل الواجب هو الاستطلاع لمعرفة ما يحدث. لقد كانت سرايا الاستطلاع تسمى غزوات من باب التجوّز، وكانت القوافل المسلحة القريبة الممر حينئذ خطرة على المدينة، حتى خرج يومًا في عدد محدود يستطلع قافلة مسلحة، فنتج عنها معركة بدر.

ويهمل كثير من الكتاب والنقاد ما يكمن في معركة بدر من تخطيط إلهي واضح، قاده الله تعالى لإظهار آية محددة، وهي أنه هو الذي أرسل هذا الرسول، وهو الذي أخرجه في عدد قليل هكذا، لا يدرى من سيلاقي، جيشًا أم عيرًا؟ وأراد له الاصطدام بهم هكذا، دون كفاءة عددية أو تسليحية.. ليكون هناك معجزة واضحة للإيمان، يعرف بها أهل مكة أن الله ﷻ هو الذي يقاتل وليس محمدًا في هذا اليوم. ويرد الكاتب بصدق وتدقيق على ما أثير من لغط حول مصير بني قريظة، في ما بعد عاصفة الصحراء لما

اجتمع العرب واليهود في مؤامرة لإبادة خضراء المسلمين الوليدة.

ويقص المؤلف من روايات السيرة دلالات على أشكال من حب شخص النبي ﷺ، والإخلاص النادر، ومشاهد تثبت أن شيئًا جديدًا في الدنيا يتكون راقيًا، ومولودًا جديدًا يرى النور، سواء في معركة بدر التي انتصر فيها الإسلام ونال فرصته للحياة، أو في أُحد التي انتقم فيها أهل مكة لقتلاهم، ولكنهم لم يقتلوا النبي ولا الإسلام. ورغم فرار الكثير من المسلمين في فوضى المعركة فإنه كان فرارًا لم يضر، وعادوا يصطفون دفاعًا عن مدينتهم، وإصرارًا على الحياة بعد الفرار، وتوبة والتئامًا سريعًا. ويكشف الكاتب وجه الإسلام الناصع في فصل ينم عن فهم استراتيجي عال، وفقه نافذ للقرآن، عندما يسأل بعد واقعة الخندق ومعجزة النجاة منها: هل أراد رسول الله استمرار الحرب؟ ويجيب بما يرضاه الله ويقول: حقًا هذا هو ديني الذي أوحيت. ثم يتبع خط حياة حبيبه محمد ﷺ حتى يواريه الثرى وهو يهتف بأمته: الصلاة وما ملكت أيمانكم، ثم يطلب طلبه الأخير: ألا يجعلوه أكثر من إنسان رسول. فلا تملك عقلك من الإعجاب، ولا دمعك من الانسياب، ولا قلبك من نبذ الارتياب، أنه حقًا نبي رب الأرباب.

فتحي عبد السلام

أسماء المراجع واختصاراتها

يستعمل بعض المفسرين حرفًا أو مجموعة من الحروف اختصارا لاسم المرجع المستعمل، غير أن هذا لا يفيد القارئ كثيرا لأنه يضطر إلى الرجوع مرات كثيرة إلى قائمة الاختصارات للتأكد من معنى الحرف المستعمل للدلالة على المرجع. وفي نفس الوقت يبدو أنه من غير المناسب كتابة اسم المرجع بأكمله في كل مرة يُذكر فيها. لذلك اتّبعنا طريقا وسطا، وذكرنا اسما مختصرا للمرجع، فمثلا بدلا من كتابة اسم المرجع على النحو التالي: "مسند الإمام أحمد بن حنبل"، اكتفينا بكتابة "المسند" أو "مسند أحمد"، وبدلا من "السيرة النبوية للشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام" اكتفينا بكتابة "ابن هشام". وهذه الأسماء المختصرة تدل القارئ بسهولة على المرجع المقصود. أما المراجع التي تستعمل بكثرة فلم نذكر لها اختصارا، وبالنسبة لأسفار الكتاب المقدس، ذكرنا الصيغة التي يستعملها عادة أهل الكتاب، وهي ذكر اسم السِّفْر متبوعا برقم الإصحاح ثم رقم الفقرة أو الفقرات المستشهد بها. وفيما يلي قائمة أسماء المراجع والاختصارات المستعملة، وقد راعينا كتابة اسم المرجع ومؤلفه كاملين.

الاسم المختصر	اسم المرجع والمؤلف كاملان
البخاري	صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري

مسلم	صحيح مسلم، الحافظ أبو الحسين مسلم بن حجاج
الترمذي	جامع الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي
أبو داود	سُنن أبي داود، الحافظ سليمان بن أشعث أبو داود
ابن ماجه	سُنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله بن ماجه القزويني
المسند، أو مسند ابن حنبل	مسند أحمد بن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل
النسائي	سُنن النسائي، الحافظ أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي
الموطأ	موطأ الإمام مالك
كنْز العمّال	كنْز العمال في سنن الأقوال والأفعال الشيخ علاء الدين عليّ المتقي
فتح الباري	فتح الباري، أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني
الطحاوي	شرح معاني الأطهار، أبو جعفر الطحاوي

الطبري، أو ابن جرير	تفسير القرآن، وتاريخ الرسل والملوك، الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري
موير	حياة محمد، السير وليام موير، ١٩٢٤م
ابن هشام	السيرة النبوية، الشيخ أبو محمد عبد المالك بن هشام
الطبقات	الطبقات الكبرى، محمد بن سعد المعروف بابن سعد
الخميس	تاريخ الخميس، الشيخ حسين بن محمد الديار البكري
الزرقاني	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية، إمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني
أُسُد الغابة	أُسُد الغابة في معرفة الصحابة، الحافظ أبو الحسن علي بن محمد
الإصابة	الإصابة في تمييز الصحابة ابن حجر العسقلاني
زاد المعاد	زاد المعاد في هدي خير العباد، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

السيرة الحلبية	السيرة الحلبية، عليّ بن برهان الدين الحلبي
شرح السُنة	شرح السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي
الروض الأنف	الروض الأُنُف، الإمام السُهيلي

أسفار الكتاب المقدس

التثنية	سفر التثنية
أشعياء	سفر أشعياء
متّى	إنجيل متّى